تحقيق وتمحيص

للأستاذ عبد العظيم قناوى

٢

عرضت فى مقال سابق مثلين من أمثلة كثيرة ينتظمها التاريخ الدينى ، ولو بترت منه أمثال هذه الأخبار لسلم مما يصلح أن يتخذ مادة لتشويه أخباره ، وتزييف آثاره ، وختمت المقال بدعوة الرجال الغير — وهم بفضل الله كثر — إلى تحقيق مايعتوره شك أو ماتكون فيه مظنة مبالغة ، أو مالا يتقبله العقل فقلت: « والآن ألم يأن أن نتبين نحن رجال الدين واللغة بعد هذا التحليل أن كتب السيرة جديرة بالتهذيب والصقل ، أو على اليسير الأدنى بالتعليق والتنقيح ؛ حتى ننفى اللبس عن كل مايمت إلى هذا الدين القويم بسبب قريب أو بعيد ؟ » .

والحمد لله أن جاء بعض ما يخلج به صدرى متفقا مع مايرمى إليه كبار رجال المعارف فهاهم أولاء يدعون إلى تهذيب طائفة من كتب الأدب ، ولعلهم يوسعون دائرة التشذيب والتهذيب فتضم إلى كتب الأدب كتب السيرة والتاريخ . فيخدمون حينئذ العلم فى شتى فروعه ومناحيه .

وفى هذا المقال أعرض مثلين أدبيين رواهما وأمثالها كثير من كتب الأدب العظيمة ، وفيهما من الغرائب مايحمل على اتهام رواتهما بحب المبالغة أو بالرغبة فى جعل الأدب معينا للقصة ، أو بهما معا .

صاحب المثل الأول عالم لغوى وأديب راوية ، ومخبر ثقة هو أبو سعيد أحمد بن أبى خالد الضرير ، ويكفى لبيان منزلته العلمية ذكر حديث عنه قال : كنت أعرض على ابن الأعرابى [1] أصول الشعر أصلا أصلا ، وعرض عليه — وأنا أحضر — شعر الكميت فحفظته بعرضه ، وحفظت النكت التى أفاد فيها ، فقال لى ابن الأعرابى يوما : لم تعرض على فيما عرضت شعر الكميت . فقلت له : عرضه عليك فلان فحفظته بعرضه ، وحفظت ما أفدت فيه من الفوائد والنكت والمعانى ، وجعلت أنشده وأعرفه من تلك النكت ، فعجب .

ذلك مبلغ علم الرجل ومقدار إحاطته بديوان العرب ، فلا غرو أن ينسب إليه ما ليس له ، وليس غريبا أن يدعى عليه ما لم يقل تعزيزا لرأى أو تثبيتا لحجة ، ولكن العجيب البعيد أن يسنه رأيه ، ويخطأ حكمه ؛ ليكون هذا دليلا على أن صاحب الرأى الثانى إبليس جاء فى زى مجنون معروف لجميع أهل نيسابور . كأن إبليس قد فرغ من الإغواء والاضلال ، فجاء يكفر عن تزيينه للناس حب الشهوات بإرشادهم فى اللغة وتوجيه معانى الأبيات ، فلله هؤلاء الرواة الثقات أنى يؤفكون !

روى معجم الأدباء فى ترجمة أحمد بن أبى خالد الضرير ما يأتى :

حدثنى وهب بن إبرهيم قال : كنا يوما بنيسابور فى مجلس أبى سعيد المكفوف . . . إذ هجم علينا مجنون من أهل « قم » فسقط على جماعة من أهل المجلس ، فاضطرب الناس لسقطته ، ووثب أبو سعيد لا يشك أن آفة لحقتنا من سقوط جدار أو شرود بهيمة ، فلما رآه المجنون على تلك الحال قال : الحمد لله رب العالمين . على رسلك ياشيخ لا ترع آذانى هؤلاء الصبيان وأخرجونى عن طبعى إلى ما لا أستحسنه من غيرى ، فقال أبو سعيد : امتنعوا عنه عافاكم

(١) ابن الاعرابى : هو أبو عبد الله محمد بن زياد الكوفى . عالم لغة راوية للاشعار بخبر بالانساب كان كثير الملازمة للعلماء عصره ، فاستظهر عليهم .

الله ، فوثبنا وشردنا من مكان ورجعنا ، فسكت ساعة لايتكلم إلى أن عدنا إلى ما كنا فيه من المذاكرة ، وابتدأ بعضنا بقراءة قصيدة من شعر نهشل بن جرير التميمى حتى بلغ قوله :

غلامان خاضا الموت من كل جانب فآبا ولم تعقد وراءهما يد
متى يلقيا قرنا فلا بد أنه سيلقاه مكروه من الموت أسود

فما استتم هذا البيت حتى قال المجنون : قف أيها القارىء تتجاوز المعنى ولاتسأل عنه مامعنى قوله « ولم يعقد وراءهما يد » ؟ فأمسك من حضر عن القول ، فقال قل ياشيخ فإنك المنظور إليه والمقتدى به ، فقال أبو سعيد: يقول إنهما رميا بأنفسهما فى الحرب أقصى مراميها . ورجعا موفورين لم يؤسرا فتعقد أيديهما كتفا . فقال ياشيخ : أترضى لنفسك بهذا الجواب ؟ فأنكرنا ذلك على المجنون ، فنظر بعضنا إلى بعض ، فقال أبو سعيد هذا الذى عندنا فما عندك ؟ فقال : المعنى ياشيخ آبا ولم تعقد يد بمثل فعلهما بعدهما لأنهما فعلا مالم يفعله أحد كما قال الشاعر :

قوم إذا عدت تميم معا سادتها عدوه بالخنصر
ألبسه الله ثياب الندى فلم تطل عنه ولم تقصر

أى خلقت له ، وقريب من الأول قوله :

قومى بنى مذحج من خير الأمم لايضعون قدما على قدم

بمعنى أنهم يتقدمون الناس ، ولايطئون على عقب أحد ، وهذان فعلا مالم يفعله أحد ، فلقد رأيت أبا سعيد وقد احمر وجهه واستحيا من أصحابه ، ثم غطى المجنون رأسه وخرج وهو يقول : يتصدرون ويغرون الناس من أنفسهم فقال أبو سعيد بعد خروجه : اطلبوه فإنى أظنه إبليس فطلبناه فلم نظفر به »

هذا حديث يرويه كتاب من أمهات كتب الأدب شديدُ الاضطراب ظاهر الاختلاق بادى الوضع يكتنفه الريب من كل شق فيه .

فأولا : تلاميذ أبى سعيد يعرفون المجنون معرفة وثيقة ويعرفون بلده ، لأنهم يتعقبونه ويحصبونه شأن الأطفال مع ضعاف العقول ، وهذا ظاهر من شكواه منهم ، والمجانين لا يكونون علماء باللغة ملمين بمواقع الكلام ، وأحر بهم وقد عرفوه أن يطردوه ، أو يسخروا منه ويهزءوا به .

ثانيا : لو أنه كان إبليس حقا لحمد نفسه قبل أن يحمد ربه : لأنه نال من الصبيان كما نالوا منه ، إذ رعبهم كما رعبوه ، وأفزعهم كما أفزعوه عندما يرونه متمثلا بالمجانين .

ثالثا : كيف أخرجوه عن طبعه ؟ هل حملوه على أن يعقل ؟ أو أنها جملة قذف بها فى ثنايا الحديث قذفا دون أن يكون لها فى نفسه مأرب يقصده من إلقائها .

رابعا : لا أنكر أن المعنى الثانى أكثر وضوحا من المعنى الأول ولكن (الشرح اجتهاد) فكيف لم يدافع أبو سعيد عن رأيه كما عزز المجنون رأيه ؟ لاسيما أن الأبيات التى أوردها فى استدلاله على تفضيل تفسيره لا تتصل بالموضوع اتصالا قويا ، وما كان لعالم حجة ثقة كأبى سعيد أن يستخذى أمام « مجنون » ولا يحير قولا يقيم به حجته ، ويصوب رميته .

خامسا : كيف لم يعرف من سؤال الشيخ عن معنى البيتين فى شبه اعتراض وتحد أنه ليس المجنون الذى يعرفون . وحينئذ يفكرون من تلقاء أنفسهم فيمن يمكن أن يكون هذا المقتحم عليهم درسهم دون أن يلفت الى ذلك أنظارهم أبو سعيد الضرير . وسادسا وسابعا . . . الخ

الرأى الذى يغلب على ظنى أن ياقوتا تلقف تلك الرواية من الرواة الذين قد يكونون أعداء لأبى سعيد ، ليطنب بها فى ترجمة الضرير ، على أنه قد يزعم أنه يمدحه بإيراد ذلك الخبر إذا لم يسم على رأيه رأى سوى قول إبليس .

٢

أما الخبر الثانى فرواه غير واحد من رواة الأدب ، وذكره بعضهم على أنه حقيقة ، وتشكك فيه آخر ، واعتقد قوم أنه خرافة ، وما كان للأول أن يأخذه عن تحقيق جلال الإسناد أو إكبار أصحابه . وحسب هؤلاء أن يروضوا العقل على إقراره ، وإلا نبذوه ، ولكنهم لم يفعلوا ورووه فى حيرة يتشككون.

صاحب هذا الحديث أبو إسحاق إبراهيم الموصلى أمير الألحان عند الرشيد ، وذو الخطوة التى لا تسامى لديه ، فهو سميره لا يستطيب مجلسا دونه ، ولا يلتذ سمر حفل ليس الموصلى واسطته فإنه ليستأذنه يوما يقضيه لا بين أترابه وحواريه ، بل بين حوره وجواريه ، فيستكثر ذلك عليه ، فطورا يلبى رجاءه حفاظا على قلبه أن ينقبض ، وآخر لا يجيب نداءه حرصا على عقد مجلسه أن ينفرط ، وهو فى حاليه المعتز بمحضره ، القرير الطرف بلحنه وسمره .

سأله مرة فى ضراعة أن يهب له يوما يستمتع فيه بما لا يتاح له الاستمتاع به فى حضرة مولاه ، وتمنى أن لو منح يوم الجمعة ؛ ليكون فضل الخليفة عليه جزيلا ، وصنيعه فى صنيعته جليلا ، فأناله بعض طلبته ، وسمح له بيوم السبت الذى يستثقله ، ليسيم فيه سرح اللهو حيث أراد ، فكان ذلك العطاء من أعظم أعطيات الخليفة عنده ؛ إذ أخذ فى ذلك اليوم درسا لم يتلفه عن جوانويه [١] أستاذه الأول ولا عن المجنون [٢] أستاذه الثانى ، فقد بلغ بثالثهما شأوا لم يبلغاه، وأدرك به مدى لم يدركاه ، وأوتى موهبة لم يؤتها أحد سواه .

أمر إبراهيم بوابه أن يوصد الأبواب دون كل قاصد حتى يتم له الهناء الذى بغاه ، وهيأ مجلس أنسه ، ودعا جواريه يقصفن ويغنين ، ويغنى ويرقص،

(١) جوانويه : مغن مجوسى ذهب إليه الموصلى أول عهده بالغناء فأعجب به .

(٢) يزعم الموصلى — فيما يزعم — أنه تعلم الغناء عن مجنون كان يطعمه ويسقيه ، ويخدمه ويأخذ عنه ما يجيده من الأصوات كما كان يأخذ أصواته عن الهررة والكلاب .

وإذ هو على حاله تلك فوجىء بمحى يحييه ، هو شيخ وسيم جليل ، له وجه صبوح ولحية مهذبة ، وعليه أثواب مطرزة ، وبين أطرافه عصاقبضتهامفضضة . يفج الأريج من أردانه ، فداخل رب البيت منه رهبة منعته أن يسأله عن اسمه وأربه ، فأشار عليه بالجلوس فجلس ، واخذ فى حديث أفاض فيه الضيف وأجاد ؛ حتى سريت عن المضيف الوحشة وذهب الخنق ، فدعا بالطعام وأراده عليه فأباه ، فعرض عليه الشراب فاباه ، فتساقيا أرطالا من بنت الكرم ، وأخذت سورة المدام الزائر فقال : يا أبا إسحاق هل لك فى أن تغنينا ؟ فالراح نشوة الأشباح ، والغناء سلوة الأرواح ، فنستأثر بك لحظة نستمتع فيها بما بذذت به الأولين ، وبما سيتأثره بعدك الآخرون ، فكبر على كبرياء إبرهيم هـذا الاقتراح ، وخفف وقعه عليه مافيه من أدب وخلابة ، ومالرجل من نبل ومهابة فأمسك العود وعزف مغنيا ، وجود ما استطاع تجويدا حتى انتهى الصوت ، فقال له : أحسنت ياإبراهيم ، فزدنى غناء أزدك حباء ، فآلمه التقريظ ، وساءل نفسه ، من هذا المتطفل المتعالى الذى ما اكتفى بأن يدخل دون استئذان ؟ وبأن يقترح علىّ الغناء حتى دعانى باسمى ، وما أجمل فى مخاطبتى ، وترفع علىّ فوعدنى بمكافأتى ورغب فى أن يصل إلى قرارة الموضوع ، فغنى ، وأتى من الإجادة بمالا زيادة بعده لمستزيد ، حتى طرب الضيف وقال :أحسنت ياسيدى فهل تسمح لعبدك فى الغناء ، فكاد عقل إبراهيم يختبل لذلك الأبله المتعاقل ، وقال له : شأنك ! فأخذ العود وجسه ، فحسب إبراهيم أن العود ينطق بلسان عربى مبين ، وأخذ يغنى :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى ... بها كبدا ليست بذات قروح
أباها علىّ الناس لايشترونها ... ومن يشترى ذا علة بصحيح ؟
أنن من الشوق الذى فى جوانحى ... أنين غصيص بالشراب جريح

فأخذ إبراهيم بالتوقيع ، وبهت حتى اختلط عليه الأمر فخال كل مافى

البيت يجيبه ، فلما رأى الضيف ولع مضيفه بغنائه غنى :

ألا ياحمامات اللوى عدن عودة فإنى إلى أصواتكن حزين
فعدن ، فلما عدن كدن يمتنى وكدت بأسرارى لهن أبين
وعدن بترداد الهديل كأنما شربن الحيا أو بهن جنون
فلم تر عينى مثلهن حمائما بكين ولم تدمع لهن عيون

فسلب من إبراهيم النهى ، وأفقده صوابه أن ضيفه قضى على فنه ، ورأى صاحبه ذلك منه فأبى إلا أن يقضى على البقية من لبه فغنى :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد؟ لقد زادنى مسراك وجدا على وجد
أئن هتفت ورقاء فى رونق الضحا؟ على غصن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكى الحزين صبابة وذبت من الوجد المبرح والجهد
وقد زعموا أن المحب إذا نأى يمل ، وأن النأى يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

فتصدعت عبقرية إبراهيم بين يدى عبقرية ذلك المارد الفذ ، وصار ذلك المستطيل بصناعته الماهى ببضاعته قزما أمام ذلك الزائر ، فاستمع إليه خاشعا وهو يقول له : تعلم هذا الغناء الماخورى ، وانح نحوه فى غنائك ، وعلمه جواريك. فرجاه إعادة فرفض ، وقال له : لست إليها فى حاجة ، ثم غاب عن عينيه ، فارتاع إبراهيم أعظم ارتياع ، وقام الى سيفه فجرده ، وقصد إلى جناح حرمه فوجده مغلقا ، فسأل جواريه أى شىء سمعن ؟ فحدثنه حديث الغناء ، وأنه ملك عليهن كل جارحة من جوارحهن ، وتمنين أن لو دام ويحرمن أطايب الطعام والشراب ، فيمم الباب فوجده موصدا ، فسأل البواب عن الشيخ الذى خرج الساعة: أى سبيل قصد ؟ فخاف البواب أنه ما خالف له أمرا ، ولا أدخل عليه أحدا ، فرجع فى بلبلة خاطر ، واضطراب فكر ، وخشى أن تكون قد خالطته جنة ، ولكن أخالطت كذلك كل أهل بيته ؟ وإنه لكذلك إذا هاتف يهتف

قائلا : لا بأس عليك يا أبا إسحاق، أنا أبو مرة إبليس ، وقد كنت نديمك اليوم فلا ترع . وكان هذا الدرس أحد دروس عدة تتحدث بها كتب الأدب .

لا يخالج أحداً أدنى ريب فى أن تلك القصة وشبيهاتها من نسج خيال إبرهيم الخصب الممرع ، ليدخل فى روع مولاه الرشيد أنه أوتى ما لم يؤته أحد من رصفائه ، فأستاذه ليس من الأناسى ، وفنه أسمى فن ينتظر ؛ لأنه لن يخطر على قلب بشر .

ومثل تلك الدعاوى العريضة الغريبة يبعث الخشية فى نفوس لداته ممن كانوا ينافسونه فى الزلفى لدى الخلفاء والوزراء ، ومتى ذاعت مثل هذه الأحاديث تطلع إلى سماعة كل عظيم القدر جليل الخطر يملئون فمه بالنضار ، فيشنف سمعهم بأعذب الألحان على أدق الأوتار ، ولا أسيغ أن يشك صاحب الأغانى فى اختراع هذا الخبر ، وإن كان بعض مرويه مثار شك ، إذ يقول : « هكذا حدثنا ابن أبى الأزهر ، وما أدرى ما أقول فيه ، ولعل إبرهيم صنع هذه الحكاية ليتنفق بها ، أو صنعت وحكيت عنه » ثم يروى — مع ذلك — أخبارا لا تقل عن هذه غرابة ، ولا يراها مستحيلة الحدوث .

وكأنى برجال الأدب يبهرهم لألاؤها ويأخذهم بريقها، فيغضون عن تزييفها . وكان أجدر بهم أن يجمعوا بين الحالتين ، ليبلغوا بعملهم الحسنيين ، فيرضوا العاطفة والعقل ، ويخدموا التاريخ والقصة ، ولكنهم لم يفعلوا ، فعلينا أن نتم ما بدءوا . فنخدم الأدب واللغة والدين والتاريخ كما خدموا .

عبد العظيم على قناوى
المدرس بأسيوط الثانوية